

يُعرف "فريديريكو غارثيا لوركا" الاسباني، كشاعر غنائي أكثر منه مؤلفاً مسرحياً، واعتبره الاسبان شاعراً وطنياً كبيراً ورمزاً من رموز الإبداع والثورة. ورغم أنه لم يكتب الكثير من المسرحيات، إلا أن ثلاثيته التراجيدية (عرس الدم، يرما، بيت برناردا ألبا) تعتبر تجديداً للتراجيديا المتألقة، ولكن بروح عصرية تنطلق من المسرح الشعبي الحقيقي. فأبطال وشخصيات مسرحياته اختارها من الفلاحين والقرويين المغارقين في تقاليد الريف القاسية والقيم السائدة (الثأر للدم، عاطفة الشرف، التمسك بالمتقاليد المقدسة القديمة، الانتقام... إلخ). تناول "لوركا" في أعماله الفلاح الاسباني المغارق في البرؤس والخائف من المستقبل، ليُجعل من الحاضر نتاجاً للعبودية وبؤس الحياة منذ مئات السنين السابقة، فهذا النظام القروي المحكوم بالجهل والخرافات الدينية والعائلية، بالضرورة نظام معادي للحرية والحب.

هذا النظام القروي -من وجهة نظر "لوركا"- يجعل المشر منتشراً بين الجميع، لذلك لم يُسقط المشر على شخصية واحدة، فجميع الشخصيات في مسرحياته مركبة في عواطفها ومفاهيمها ولديها قدر من المشر، وبالتالي مشاكل العلاقات الخاصة بين الأفراد تتعمق وتصبح قضايا اجتماعية عامة، والصراع يتركز بين صفات الشعب الطامح للحرية والعدالة، وبين غياب وخمول نظام قروي وتقديس للتقاليد القديمة.

يبتعد "لوركا" في مسرحياته عن نظام البطل الرئيسي المفرد؛ فجميع الشخصيات تقريباً تصبح بطل رئيسي في لحظة من لحظات المصدام التراجيدي. إن "لوركا" يخلّف طباعاً متناقضة لدى أبطال مسرحياته، حيث يسלט الضوء على الطباع البشرية الضعيفة، ويكشف بشاعة الطمع والغرائز الفجّة والظلم الوحشي والنفاق والعجرفة والخرافات التي تنتقل من جيل لآخر، من الأم إلى بناتها، مثال ذلك بنات "برناردا"، هن في كل شيء يشبهن أمهن "برناردا"، أنانيات، منافقات، يبتذلن الطبيعة الإنسانية ويفرغن معناها. إنهن متحدات في كراهية الحرية وكراهية الحب، يسيطر عليهن البرؤس والاستسلام، وتتحكم بهن الغرائز. وسط هذا العالم تتسدد "برناردا" الأم، وتحول الحياة إلى موت، والحب إلى مجرد علاقة شهوة روتينية.

البطل الحقيقي في مسرحيات "لوركا" هو الشعب، ولكن "لوركا" يتجنب التزلف للشعب ويقدم الحقيقة بقسوة، فهو لا يعفي الناس من مسؤولياتهم، فنقائض الحياة الاجتماعية لا تبرر الخمول والاستسلام والسيطرة على روح الشعب، لأن هذه الروح المتطلعة للحياة والطامحة للحرية والمتعطشة للعدالة لا يمكن أن تغير واقعها دون إرادة، ودون أن تغير سلوكها وأفعالها وتأخذ زمام المبادرة.

موضوع الحب والموت، يتكرر في مسرحيات "لوركا"، ويظهر كأن الموت هو نتيجة للحب. فالموت يأتي بعد الحب في المسرحيات، ولكن الذي يدفع إلى الموت ليس الحب، بل قوانين وعادات النظام الاجتماعي القاسية التي لا زالت سائدة. النهاية المأساوية رغم الألم تبدو أنها ضرورة كونها تعني تحرر الجوهر الإنساني من استبداد الخرافات والعادات الجامدة. رغبات الأبطال وشهواتهم التي تقودهم إلى الهلاك تعني قهر الأشكال المضيقة للوجود الاجتماعي التي فرضها الزمن على الناس. الشرط الوحيد والقاسي لبقاء الإنسان هو النضال والصراع ضد كل ما يهدد الحب والحياة.

"أديلا" ابنة "برناردا" الصغرى، تتجراً على المتخلّي عن نداء الأخلاق المتبّعة والمعترف بها، فهي ترفض التنسك والاعتزال، فدماؤها تغلي بالحياة. لذلك تقيم علاقتها مع "بيبي إيل رومانو" سرّاً لخوفها من أمها وأخواتها وخدم البيت ومجتمع القرية. لذلك، تكذب. تكذب في كل شيء لتخفي سرها. "أديلا" في سلوكها لا تخرج عن تصورات أمها وفهمها للعاطفة والحب. فالأنانية والشهوة الخالية من

كل الأساس الأخلاقية والمثل الروحية العميقة تغيب عن علاقتها. لذلك "أديلا" ليست شعاعاً من نور، بل هي قلباً وقالباً جزء من المملكة المظلمة وجديرة بعائلتها، ولا تختلف عن أخواتها لأنها تبادلهن الكراهية والاحتقار، وتشهي بهن إلى أمها "برناردا". إن حياة بنات "برناردا" الروحية فقيرة بائسة، وعالمهن ضحل، وأقوالهن روتينية تقليدية.

"لرجال والمخيل والمسوط، للنساء والمخيط الملبرة" √ √ √

"ممكناً عقاب أسوأ هو، امرأة تولدي أن" √ √ √

"لنا ليست أعيننا حتى" √ √ √

"المثمن تدفع أن عليها شرفها في تفرط المتي" √ √ √

هذا يعجبها لا والمتي. وأصدقائه للمقهى المائدة يترك وبعدها، الطعام لمائدة السرير يترك الزواج من أسبوعين بعد الرجل" √ √ √
الكلام، لديها بدل الأربعة جدران مائة جدار"

إن المأساة الحقيقية في هذه المسرحية ليست في عدم توفر فرص زواج لبنات "برناردا"، بل في عدم إدراك أي واحدة منهن للحب، وعدم شعورهن به. صحيح أن "أديلا" تعبر عن حبها لـ "بيبي" ببساطة، وتقود في المشهد الأخير معركتها بجرأة وشجاعة، غير أن بيت "برناردا" أقوى منها، كونها كانت قد قبلت بقوانينه وانصاعت لأنظمتها بشكل كلي. وتنتهي محاولتها الأخيرة للخروج من سجن البيت بالانتحار.

مأساة "أديلا"، هي انعكاس لمأساة شعب انتزعه التاريخ من الوجود الأبوي المفسد، لكنه لم يملك بعد الإرادة الكافية للنضال والتحرر.